معجزة العرب

أو

العلم عند العرب

LE MIRACLE ARABE

أ: مولود طياب

(مترجم)

ميراث العلم عند العرب، ميراث ضخم لا يحيط به إلا العارفون من الباحثين والمؤرخين المتخصصين المعنيين بتسجيل مراحل تقدم العلوم وما تم ويتم فيها من الاكتشاف المعتبر الذي يدفع بعجلة الرقي البشري، وإذا اتخذنا لهذه الكلمة عنوان" معجزة العرب" فليس ذلك لمباراة كل من ضرب بسهم في تقديم العلوم من الأمم المختلفة، ولا لنباهي بالأمجاد الزائفة، وبما لم ينجزه أسلافنا في العصور الماضية، بل تذكيرا بالحقائق التاريخية التي طمستها الأمية السائدة والتضليل المتعمد، واستنهاضا لهمم أجيال شعوبنا لتعرف مكانتها بين الأمم ولتنتهج سبيل الانخراط في الحضارة وأسباب الحياة الكريمة بتطويع العلوم والتقنيات المتجددة.

ذلك لأن ميراث العلم، بل العلوم عند العرب، ليس خرافة أو أسطورة للترفيه الخيالي، تشهد عليها الآثار الباقية في عربيتنا الخالدة، وإذا تحدثنا عن "معجزة عربية" فتلك المعجزة ترجع إلى هذه اللغة التي تحدّت عن العصور، بعد أن سادت في مرحلة ازدهارها خلال ما يسمى بالقرون الوسطى، فالعربية اليوم قد عرفت انبعاثا ونهضة تدل على أنها تحمل من أسباب الحياة ما يحدو بها إلى طلب الكمال ومواكبة تقلب الأحوال، وكما قال الأديب السوري زكي الأرزوسي"إن عبقرية العرب في لغتهم " هذه اللغة التي برهنت عبر القرون على طاقاتها لتفجير الفكر البشري، وعبرت عن أشواق هذا الفكر بسائر الألوان، من

حكمة وفلسفة، وآداب زاخرة وفنون ظاهرة، وعلوم مختلفة رفهت حياة الإنسان وأتاحت له ما شاء من متع مادية، وأهواء روحية ، وتطلع محمود، ومن الجد اليوم أن نعمل على صون لغتنا من كل ضعف وأن نبث ميراثها وأسرارها، وأن نبدع بها كما أبدع أسلافنا، ونحافظ على سمتنا بين الأمم مساهمين في موكب الحضارة الإنسانية.

معجزة اليونان

إن الأوروبيين لا يزالون عندما يبحثون عن الجذور التاريخية الماضية لثقافتهم وحضارتهم، يرجعون دائما وغالبا إلى ميراث الثقافة اليونانية، ويشيدون بهذا الميراث إلى درجة اعتباره "معجزة" ويقولون "بمعجزة اليونان"(le miracle grec) ويضيفون إليها ما يرونه من أمجاد الرومان، ومعنى ذلك أن الأوروبيين أو مؤرخيهم يحصرون منبع ثقافتهم في الميراث اليوناني الروماني، وإن كان بعض هؤلاء المؤرخين المتأخرين يرون غير هذا الرأي ويقولون إن الميراث الثقافي اليوناني لم ينشأ عن عدم، وأن اليونانيين أنفسهم من ورثة المصرين والبابليين (بلاد النهرين) والفينيقيين، ويقول بيير روسي (p. . rossi) في كتابه "وطن إزيس" (la cite d'isis) "إن اليونان يعترفون بأنهم تلامذة الفينيقيين"، " ولكننا نحن أحرص من اليونان على مجدهم وماضيهم "وقد أوضح صاحب الكتاب هذه القضية مبينا أن حضارة بلاد النهرين وحضارة المصريين قد سبقتا حضارة اليونان بعشرات القرون، إذ أن اليونان لم يظهروا على صفحات التاريخ إلا بعد القرن الثامن والسابع قبل الميلاد، بينما كانت مصر وبلاد النهرين قد سبقتا إلى الوجود منذ الألف الثالثة قبل الميلاد على الأقل،ومن الواضح من جهة أخرى أن اليونان المجاورين للفينيقيين قد تلقوا منهم معارفهم كما تلقوا الأبجدية الفينيقية التي انتقلت إلى أوروبا.

فاليونان إن كان لهم فضل في تكوين الميراث الفكري البشري، وبالتالي إحداث ما يسمى "بالمعجزة" فذلك يرجع إلى ما تلقوه وأخذوه عن جيرانهم، من علوم وفلسفات، وبتسجيل ما تلقوه في عصور ازدهار دولتهم.

معجزة العرب

إن الأمر الذي يتجاهله المؤرخون الرسميون في أوروبا هو أنهم لم يكتشفوا اليونان "ومعجزتهم " خلال القرون الوسطى بطريقة مباشرة وبجهود ذاتية من علماء أوروبا، إن الأوروبيين إنما اكتشفوا اليونان وميراث الفكر اليوناني بعد اتصالاتهم بالحضارة العربية في الأندلس وجنوب أوروبا وجزر البحر، فمن المعروف أن الحضارة العربية التي انتشرت خلال القرون الوسطى ابتداء من قيام دولة الإسلام وابتداء من

القرنين الثامن والتاسع الميلاديين استطاعت أن تنجب ميراثها العلمي بدافع من مبادئ الإسلام الذي دعا العرب المسلمين إلى طلب العلم ونشر العلم، وأشاد بمكانة العلماء في قيادة الأمة الإسلامية.

وقد كان مفهوم العلم عند أسلافنا مفهوما واسعا لا ينحصر في العلوم الإسلامية، من شريعة وفقه وحديث ورواية السير، وتفاسير القرآن، أو في العلوم اللسانية والأدبية الخاصة باللغة العربية، إن العلم في نظر هؤلاء المبتكرين من العلماء يشمل علوم الحياة التي توارثتها سائر الأمم منذ آلاف السنين، من هنود ومصريين وبابليين وفينيقيين ويونان، فلا غرابة إذن إذا أقبل العرب المسلمون على هذه العلوم منذ قيام الدولة العربية في دمشق وبغداد ثم في العواصم الإسلامية الأخرى مثل القاهرة وقرطبة[1] في الأندلس، ولا غرابة أيضا إذا استقصى العرب آثار اليونان واكتشفوا حكمتهم ومنطقهم وعلومهم، من طب ورياضة وجغرافية وفلك، ومعروف أن العرب أنشأوا في بغداد أكاديمية "بيت الحكمة" بغرض الترجمة والتعرف على علوم السابقين من اليونان وغير اليونان، إن العربية وعلماء العرب قد اكتشفوا أر سطو، كما اكتشفوا جالينوس وبوغراط، وعرفوا بطليموس ولكنهم لم يقتصروا على ترجمتهم بل أبدعوا وكونوا باكتشافاتهم ميراثا علميا جديدا زاخرا (من رياضيات وطب وفلك وجغرافية وبصريات) واستمر هذا الازدهار من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أي خلال ما يزيد على خمسة قرون من القرون الوسطى، وانتشر فيض الحضارة العلمية العربية في منطقة البحر المتوسط وجنوب أوروبا، وتم الاتصال بصورة خاصة في إسبانيا (الأندلس) حيث بلغت هذه الحضارة العلمية أوجها (قرطبة) وذاعت في أوروبا الجنوبية، فأقبل الأوروبيون على تعلم العربية وعلى العلم العربي، ونقلوه بترجمة واسعة في طليطلة، كما قلدوا العرب في تكوين مدارس طبية في جنوب إيطاليا (شالون) وفي مونبيلي (mont pellier) جنوب فرنسا، ونقل الفكر العربي تدريجيا إلى شمال أوروبا وعواصمها.

كتاب معجزة العرب

ومن الجدير بهذا الصدد أن نوضح أن الغربيين إنما اكتشفوا أر سطو اليوناني بفضل شروح ابن رشد، ونقلوا رياضيات العرب وطب العرب (ابن سينا) بالترجمة من العربية، كما سجل ذلك المؤرخون، ومن هؤلاء صاحب كتاب نشر سنة 1950 بعنوان "معجزة العرب" le miracle arabe " لماكس فانتيجو max. vainrégoux ، الذي أوضح كيف تمت هذه المعجزة بما نقله العرب من علوم السابقين لاسيما في مجال الرياضيات (الخوارزمي) والطب والفلك، وانتقال الميراث العربي بدوره إلى أوروبا، خلال

---

1. يشيد الشاعر بقرطبة قائلا:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ومنها قنطرة الوادي وجامعها

هتان اتنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظمها وهو رابعها

القرون الوسطى، وقد انتج الكاتب على طريقة وضع برامج التاريخ الأوروبية وأكد على خطئها بإغفال تاريخ القرون الوسطى التي ازدهرت فيها الحضارة العربية وعلومها. ومن توضيحات الكتاب أنه يقول: "إذا استثني بعض ما ألف– خلال هذه القرون الوسطى – من كتب باللغة السنسكريتية– ومؤلفان أو ثلاثة باللاتينية فإن جميع المؤلفات العلمية الأصيلة ذات قيمة ما، إنما ألفت باللغة العربية" ويشرح الكتاب إلى كل ذلك كيف انتقلت الرياضيات العربية إلى أوروبا من بجاية إلى إيطاليا أولا، بفضل مؤلف إيطالي فيبوناسي fibonaci الذي عاش في بجاية (من القطر الجزائري) وألف كتابه (liber abaci) ، ثم إلى أقطار أوروبا الأخرى بإذاعة الأرقام العربية والجبر العربي، وقد شرح الكتاب كيف كانت نهضة أوروبا بإقبال الأوروبيين على تعلم العربية، وسميت هذه الفترة في الغرب الأوروبي بفترة الاستعراب (arabisme).

إن هذا الكتاب "معجزة العرب" le miracle arabe من الكتب الجديرة بأن يطلع عليها عموم القراء علاوة على طلاب العلم الذين لا يجوز أن يجهلوا تاريخ أسلافهم ولا ما أسهموا به في مجال الحضارة العلمية الإنسانية بدرجة يَسِمُها الكاتب المشار إليه بالمعجزة ، ولابد من الإشارة إلى مقدمة هذا الكتاب بقلم المستشرق الفرنسي المعروف ل.ماسنيون الذي ينكر دعوى القائلين بأن العربية ليست لغة علمية. وقال" أن القاموس العلمي العربي موروث عن القرون الوسطى، لم يندثر والذي تغير إنما هو هذه الأدوات التي تتجدد بالتقدم المادي المستمر، أما اللغة التعبيرية السيكولوجية والصوفية فهي قائمة سليمة، ويمكن لها أن تبعث نوعا من الشباب في الفكر الأوروبي".

ويقول ماسينون في ذلك: "أن خلود اللغة العربية، عنصر أساسي للسلم بين الأمم في المستقبل" ويدعو إلى ذلك العرب إلى التمسك بلغتهم قائلا:"أن العالم في حاجة إليهم " أي العرب،(المقدمة).

إن الكتب التي تشيد بالعرب وتاريخهم و حضارتهم و ميراثهم العلمي كثيرة في اللغات الأجنبية ولكنها غير معروفة ولا متوفرة في مكتباتنا، وقد ارتأينا لفت الأنظار إلى هذا الكتاب "معجزة العرب" وإلى كتاب وطن إزيس " la cité d'isis " كما نلفت الأنظار إلى كتاب الألمانية "سنغريد هونكي snigrid hunke "شمس الله تشرق على الغرب" le soleil d’Allah brillé sur l’occident الذي حظي بترجمة محكمة باللغة الفرنسية فهذه الكتب أقل ما يمكن الرجوع إليها في موضوع العلم عند العرب وحضارتهم العلمية، ريثما تترجم إلى العربية أو عندنا باللغة الأجنبية.